

# لذة اللذة على ضفاف المتوسط



وكالة  
السلطات  
قائمتها في  
القاهرة (مت)  
الكتاب

في قصيدة «تغيبت في منزلي برهة...» كما يرد ذكر «النساء العواهر» و«الزنا» و«الفنادق والخانات عند ابن القفطي (ت 1248 ت س) نقلاً عن هلال الصابي، في مدن شامية منها اللاذقية وبلدة اسمها «عم» تقع على خطوط التجارة من حلب وإليها، وكاننا تحت حكم الروم، أي في دار السلام، حيث حويتا جامعاً أيضاً، ويأتي ذكر ذلك عند ابن فضلان أيضاً. ويرأي الكاتب، هناك ذكر للبعاء وتصور لحانة في المقامة الثانية عشر من مقامات الحريري المصورة (ت 1122 ت س).

أما نور الدين الزنجي (ت 1146 ت س)، فقد ساوره الشك بعد هزيمته على يد الصليبيين، فرد العالم برهان الدين بلخي ذلك إلى احتساء الخمر وتواجد البغي في صفوف قواته.

أما والي طبرية، عبد الرحمن بن نصر الشيزري (ت 1193 ت س)، الذي كان في خدمة صلاح الدين الأيوبي، فكتب في مؤلفه «نهاية الرتبة في طلب الحسبة - النبات الأبيحون: تَشْتَمِلُ عَلَى جُمْلِ وَتَفَاصِيلِ فِي أُمُورِ الْحِسْبَةِ» وقال: «وَمَتَى سَمِعَ الْمُحْسِبِينَ بِإِفْرَاقِ عَاهِرَةٍ، أَوْ مُعْتَبَرَةٍ، اسْتَبْتَأَهَا عَنْ مَعْصِيَتِهَا، فَإِنَّ عَادَتَ عَزْرَتِهَا وَنَفْسَهَا مِنْ أَلْبَسِ». كما يورد سبط بن الجوزي (ت 1256 ت س) في مؤلفه «مرآة الزمان» أن الملك العادل (1218-1200 ت س) أحضر غانبات لحفل زواج.

المؤرخ شمس الدين الذهبي صاحب «تاريخ الإسلام» (م 44)، فقال «وفي رجب، أدار الملك المعظم المكوس والخمور وما كان أبوه أبطله، فقبل إنه ضمن الخمر بدمشق والخنا [البعاء] بثلاثمائة ألف درهم... واعتذر بقله المال ودفن الفرنج».

ابن خلكان (ت 1282 ت س) ذكر في «وفيات الأعيان» (م 5)، باب الملك الأشرف موسى الأيوبي «وكان في العقبة، ظاهر دمشق، خان يعرف بابن الزنجاري، ويجري فيه من الفسوق والفجور ما لا يحذ ولا ما يوصف».

كما نجد ذكرًا للخانات والبعاء والزنا والفسوق والفجور في مؤلفات الجزري، علماً بأن المقرئ ذكر أن أهل حلب التي اجتاحتها الوباء «أغلغوا

أي الزنا والبعاء، في الإسكندرية والفسطاط وعكا، في برديات الجنيزة. يقول الكاتب إن المراجع تؤكد أن العسكر كانوا يحصلون على القسم الأعظم من الضرائب المفروضة على البغي «بنات الخطى»، وأن الغواني كن يعملن أيضاً في البغاء، وأن الفسطاط كانت مركز البغاء، وأخيراً أن العبيد والإماء كن يعملن في البغاء في مختلف الخانات والفنادق التي وجدت بقرب الجوامع والمدارس، على الأغلب. فبعد الباسط بن خليل (ت 1514 ت س) والسخاوي (ت 1497 ت س) أشارا إلى اثنتين من «بيوت البغي - بنات الخطى» في نهاية العصر المملوكي إحداهما يطلق عليه اسم «ربع البريزي»، وقعت بين سوق الكتب وخان الخليبي خلف المدرسة الصالحة. أما البيت الثاني من بيوت البغي، وكان ملكاً لأحد القادة العسكريين أتاك أزيك، فوقع قرب جسر الموسيقى.

## بلاد الشام

المسيحيون في بلاد الشام شكلوا أغلبية السكان لقرون بعد الفتح، ولذا ليس من الخطأ القول إن بيوت البغي كانت منتشرة هناك، لكن ليس ثمة من ذكر لها في المراجع التي تعود للقرون الأولى من الحكم الجديد. لكن ثمة رسوم لنساء في مراحل مختلفة من التعري على جدران قصر عمرة، توحى بأنه كان مكاناً للهو. أما المرجع الأول الذي وجد فيه الكاتب إشارة إلى «دور فسق» في بلاد الشام، فيعود إلى المقدسي (ت 990 ت س)، مذكراً بقوله إن المدن الواقعة على البحر أو الأنهر جميعاً كانت تعج بالفسوق. وثمة ذكر لحادثة في عهد حاكم حلب أسد الدولة صالح ابن مرداس، تقول: «فنفر كل من في الجامع إلا القاضي والمشايخ» عندما قامت مجموعة من الشيوخ من بينهم شقيق الشاعر أبي العلاء المعري (ت 1058 ت س)، بهدم «ماخور» في معرة النعمان، وسجل المعري هذا

تصوير حصي لراقصة في «قصر عمرة»  
الأموي في الأردن (مت الكتاب)



بسبب قوادته لخمسة بغايا في بيته، لكنه لا يذكر أي عقاب لبائعات الهوى. من الأمور الجديرة بالذكر أن بائعات الهوى كن ينشطن في الفنادق الخاصة بالقوافل، وكانت الواحدة منهن تعرف بالفندقية.

يذكر المقدسي انتشار ما يعرف حالياً بالمواخير (دور الزنا) في شيراز. أما البيروني (توفي بعد عام 1050 ت س) فكتب أن عضد الدولة بن بويه (ت 983 ت س) فرض ضرائب على البغاء لتمويل جيشه، ما يعني شرعنة الخدمة ومأسستها. المقرئ (ت 1442 ت س) بدوره يذكر أن السلطان الناصر (ت 1315 ت س) ألغى بعض الضرائب ومنها المفروضة على «بيوت الفواحش». كما يذكر أن «المنكرات» كانت تنتشر على سد قنطرة ترعة أبو المنجا في بعض الأعياد، ومن دون عقاب. كما يذكر أن النساء والرجال كانوا يلتقون على ضفاف النيل في الفسطاط لممارسة الفحشاء، لكن السلطان العزيز منع قادة الجند من البناء على ضفاف نهر النيل لمنع تحولها إلى «دور زنا».

ابن سعيد المغربي (ت 1286 ت س - صاحب «النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة - القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلي المغرب. صنفه ستة من أهل الأندلس») فكتب أن الحياة في القاهرة/الفسطاط تميل إلى ما لا يرضى عنه أهل العلم، أما المؤرخ الأندلسي أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري (ت 1188 ت س)، فكتب أن الفقراء العراة في الفسطاط، «في ظواهرها ودواخلها» يتبعون شهواتهم كأن روحاً سكنتهم، وهم تحت تأثير الحشيش يرقصون عرايا في الشوارع ويقومون بعلاقات مع الصبية، أي «اللواط». كما يذكر أن العامة من الناس يحتسون المزر والخمر، ومسموح للعواهر بالعمل. وفي بعض الأحيان، كان «أهل الستر» يأتون إلى القنطرة بين الفسطاط والقاهرة للتمتع بالمنكرات والفواحش! ولا ينكر فيها إظهار أواني الخمر ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ولا تبرج النساء العواهر ولا غير ذلك مما ينكر في بلاد المغرب».

في العهد الأيوبي، نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، سمح لـ «بيوت الفواحش» في الإسكندرية بالعمل مقابل دفع صاحباتها أو أصحابها ضريبة محددة لـ «الديوان»، ما أدى إلى ظهور المنكر. أما تقي الدين عمر، ابن أخ صلاح الدين، فكان يملك العديد من الحوانيت (بيوت المزر) التي كانت تباع الجعة (مزر)، وبالضرورة حضور للبعايا فيها.

في العهد المملوكي، تحول البغاء إلى مؤسسة تابعة للدولة على نحو كامل، إذ يذكر المقرئ أن الجباية من البغاء كانت تُعطي إقطاعاً، تماماً مثل الأراضي، وهو ما يؤكد الأب الدومنيكاني ولييم طرابلس (ت بعد عام 1273 ت س)، لكنه لاحظ أن الظاهر بيبرس منع تعاطي الخمر والبعاء، وهو ما ينتقده ابن دانيال (ت 1311 ت س). وبعد سلسلة من الحظر والسماح، رفع السلطان الناصر الضرائب عن بيوت الفواحش، بطريق العرفاء. وثمة ذكر لـ «انتشار الفاحشة»،

وأوقات محددة وقدمت لهن إيصالات ضرائب على الدخل.

مع انتقال بلاد الشام ومصر من العهد البيزنطي إلى العهد الإسلامي، ووجه الحكام الجدد بمعضلة كيفية التعامل مع مسألة البغاء. علماً بأن القسم الأكبر من سكان الإقليمين الذين بقوا مسيحيين لقرون بعد العهد الإسلامي، هم من أهل الذمة، وبالتالي لا يحق للحكام الجدد التدخل في أمورهم.

الإخباري الطبري (923 ت س)، أشار إلى البغاء في جزيرة العرب وأرض السواد عندما كتب أن كسرى أنوشروان (79-531 ت س) أمر بإحضار بائعات هوى من السواد والأهواز لعمال بناء قلعة المشقر الذين رفضوا العمل من دون توافر إناث. أما محمد بن حبيب (860 ت س)، فيذكر أن البغاء والبعايا «ذوات الرايات» كان منتشرة في دومة الجندل والطائف في «حارة البغايا». وقال إن كثيراً من الإماء كن يعشن في بيوت شعر وأن أسياهن «كانوا يكرهون فتياتهن على البغاء».

ومن الإخباريين الآخرين الذي ذكروا البغاء في جزيرة العرب وبلاد الشام ابن قتبية (ت 889 ت س)، والجغرافي أحمد ابن رسته (ت 912 ت س)، وصاحب «الفهرست» ابن النديم (ت 995 ت س) ذكر أن هيثم بن عدي الذي كان من تلامذة الواقدي (ت 922 ت س) ألف كتاباً عن أسماء بغايا قریش، والمسعودي (ت 956 ت س). ولعل زياد ابن أبيه أشهر من أن يعرف.

ولا يستثنى المؤلف من استحضار «كتاب الأغاني» وشهزاد كليل على الأوضاع المرتبطة بالبعاء في ذلك الزمان. أما الرحالة الإنكليزي تشارلز دوتي (ت 1926 ت س)، فكتب أن ثمة ممارسات فحش كثيرة في المدينة، وفي غيرها من المدن التي يتواجد فيها جيش عثماني، ومنها «الزنى والسكر». والأمر ذاته ذكره الضابط البريطاني اللفنتنت كلنل هرلد رتشرد باترك كينس (ت 1959 ت س) وقال إن «أهل نجد كانوا يدعون للبعايا للغناء والرقص والترفيه عن الزوار في حفل الختان، ولم يشعر أي من الحضور بالصدمة من ذلك».

أخيراً، يذكر الكاتب قراءه بأن كتب التاريخ لا تذكر الحكم في ديار الإسلام على أي بغي بتهمة الزنا أو الفاحشة...

باستشارة كتابات الإخباريين أنفة الذكر، وغيرها، يصل الكاتب إلى استنتاج أن البغاء لم يكن محرماً في الإسلام، وأن المنع كان على القوادة فحسب بناء على ذلك، فثمة تطابق بين التشريعات البيزنطية والإسلامية بخصوص هذه المسألة.

الآن سنركز على سرد الكاتب أخبار البغاء في إقليمين هما مصر وبلاد الشام:

## مصر

يوضح الكاتب أن البغاء في مصر انتشر كما في الأمكنة الأخرى، أي حيث يتوافر جمع من الناس وأغلبهم من الرجال. الجغرافي المقدسي ذكر في مؤلفه «أحسن التقاسيم» أن شيوخ الفسطاط يشربون الخمر ونساءهم لا يمتنعن عن الفجور، وأن لكل امرأة زوجين. أما الخليفة الفاطمي العزيز (ت 996 ت س)، فقد حظر على الناس الذهاب إلى بني وائل على تخوم الفسطاط في عيد الصليب، لأنه كان مكاناً لممارسة الفحشاء على نحو غير مسبوق. الحكيم (ت 1021 ت س)، الذي عرف عنه مغالاته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أمر لـ ضمن أمور أخرى - بإغلاق الحوانيت، أي الخمارات ومنع بيع الخمر والغواني والآلات الموسيقية ومنع التعري في الحمامات، ومنع اختلاط النساء بالرجال في القوارب النهريّة، التي كانت المكان المفضل للبغي لاستجلاب الزبائن، ومنعهن أيضاً من زيارة أمكنة الخرج!

أما المؤرخ الفاطمي عز الملك المسبحي (ت 1030 ت س) فذكر في «أخبار مصر» أن متولي الشرطة ألقي القبض على رجل وزوجه من المسلمين، وأمر بضربهما وعرضهما في شوارع الفسطاط معلناً أن ذلك عقاب من يقود على زوجه للنصاري واليهود. والذنب هنا واضح وهو ليس البغاء. كما يذكر المؤرخ نفسه أن الشرطة ألقت القبض على مخنت الذي نال العقاب بالتهمة نفسها،

## مدينة الإسكندرية كانت مركزاً أساساً للبعاء، وأهل نجد كانوا يدعون البغايا للبعاء والرقص في حفل الختان

حانات الخمارين، ومنعوا البغايا الواقفات للبعاء والشباب المرصدين لعمل الفاحشة، بضرائب تحمل لناثب حلب وغيره من أرباب الدولة، فنناقص الموت وخف الوباء، ففرح أهل حلب وجعلوا شكر هذه النعمة أن فتحوا الخمارات وأوقفوا البغايا والأحداث للفساد بالضرائب المقررة عليهم».

علي بن يوسف الدمشقي الشافعي البصري قال في «كتاب البصري»: «صفر فيه رجعت من مصر وكان سُفري بسبب واقعة وهي أنه ثبت على شخص يتزيا بزني الفقهاء أنه يشرب الخمر ويأكل الخشيش ويخالط الفساق ويظهر الوقيعة في أهل العلم ويتجاهر بذلك ويفتخر به».

كما انتشر البغاء إبان الاحتلال الصليبي، إلى درجة أن مؤرخي الحملة الأولى القوا بمسؤولية كل هزيمة عانوها على ممارساتهم الفحشاء، مع أنهم كانوا في مهمة مقدسة، من منظورهم! بل إن الحاجات من أوروبا القادما إلى بلاد الشام، كن يمارسن البغاء كأحدى طرق دعم مهمتهن مالياً! حتى الإمبراطور بربروسا ذهل لعدد البغي اللواتي انضممن إلى الحملة الصليبية الثالثة. كما نجد ذكراً للبغي الأوروبيات في المؤلف الفارسي «بحر الفوائد».

ننهي عرضنا بقول الكاتب إن البغاء في العصور القديمة والوسيطة المتأخرة كان مسموحاً به في شرق المتوسط، وكانت الحكومة تعترف به وتفرض ضرائب على المداخيل. لكن القوادة وإجبار الإماء على البغاء كانا محظورين، لكن يتم غض الطرف عن ذلك، أما الكنيسة فقد كانت تعارضه، لكنها متسامحة معه.